علماء تلمسان من خلال المصادر الشرقية: الدّيباج لابن فرحون وتوشيحه للقرافي نموذجا.

أ.د. جمعة شيخة*

تعتبر مدينة تلمسان (بكسر التاء وفتحها) من أعرق مدن المغرب الأوسط[1]، وتقع في مفترق طريقين : الأوّل يربط بين تونس شرقا ووجدة غربا وهو أحد الطرق البرّيّة للحجّ، والثاني هو الطريق الرّابط بين ساحل البحر الأبيض المتوسّط شمالا (مرفأ حنين ورشقون Hunayn, Rachgoun) والصحراء جنوبا (مدينتا تيزل وسجلماسة) وهو طريق تجاري (تجارة الذّهب والعاج والعبيد)[2].

وقد تكون تسمية تلمسان متأتّية من هذا الموقع الجغرافي والاستراتيجي للمدينة : ففي لغة زناتة هناك "تَلَمْ" ومعناه اجتماع، و"سَانْ" ومعناه اثنان[3].

خضعت تلمسان للمرابطين بعد أن فتحها يوسف بن تاشفين 474هـ/1081م وأصبحت في عهدهم مركزًا علميّا نوّه به البكري قائلا : "لم تزل تلمسان دارًا للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك"[4]، ثمّ خضعت للموحّدين بعد سقوط دولة المرابطين وحصّنها عبد المؤمن بن علي بسور سنة 540هـ/ 1145م، وأكيد أنّ الدّراسات الفقهيّة على المذهب المالكي أصابها بمدينة تلمسان من الرّكود ما أصاب بقيّة الجهات في العدوة الإفريقيّة في عهد الخلافة الموحّديّة.

وأصبحت تلمسان عاصمة لدولة بني عبد الواد بعد سقوط الدّولة الموحّديّة وتفتّت وحدة الشّمال الإفريقي منذ منتصف القرن 7هـ/ 13م[5]، وتعرّضت هذه الدّولة طيلة أكثر من ثلاثة قرون إلى فتن داخليّة قبليّة وإلى أخطار خارجيّة : في بدايتها من فاس المرينيّة وتونس الحفصيّة

* - أستاذ التعليم العالي في تاريخ المغرب الإسلامي- جامعة تونس، ومدير مجلة دراسات أندلسية- تونس.

وفي نهايتها من الإسبان والأتراك. لكنّ كلّ ذلك لم يَمنع من فترات استقرار مع أمراء مشجّعين للعلم والعلماء استعادت فيها المدينة شيئا فشيئا دورها العلمي، وإن لم يكن ذلك مقنعًا للعبدري عندما زار تلمسان في النّصف الثاني من القرن 7هـ/13م؛ فلم يجد فيها "من ينتمي إلى العلم ولا من ينتسب إليه بسبب"[6]، وسوف لن يكون لهذه النّظرة التشاؤميّة من مبرّر خلال القرن 8هـ/14م، وما بعده فقد أصبحت تلمسان مركزًا علميا لا يستهان به ينافس غرناطة في الأندلس وفاس بالمغرب وتونس بإفريقيّة.

وقد حفظت لنا كتب التّراجم والطبقات، ومصنّفات الفهارس والبرامج بما فيها من تراجم لعلماء تلمسان صورة حيّة عن هذه الحياة العلميّة بها. ولئن كانت التّرجمة لعلماء تلمسان في المصادر المغربيّة أمرًا متوقّعا ومألوفا، فقد ارتأينا أن ننظر في مصدرين مشرقيين للتعرّف على مدى حضور علماء تلمسان في المشرق العربي ومدى اطلاع المشارقة على الحياة الفكريّة والعلميّة بها.

وليس المقصود من هذا البحث تعداد علماء تلمسان فهم كثر. ولكن هدفنا هو أن نتعرّف على صدى الحركة الفكريّة التي قامت بتلمسان، في المشرق العربي من خلال كتاب "الدّيباج" لابن فرحون (ولد حوالي729هـ/1328م، وتوفي سنة 799هـ/1397م)[7] وذيله "توشيح الدّيباج" للقرافي (ت 1008هـ/1600م). ويعتبر المصنّفان مصدرًا ثرّا في ما يتعلّق بالحركة الفكريّة- والدّينيّة منها خاصّة- في العدوتين الأندلسيّة والإفريقيّة منذ القرن 7هـ/13م إلى القرن 10هـ/16م.

ومؤلّف الأصل مشرقي من المدينة وهو قاضيها برهان الدّين إبراهيم بن علي ابن محمّد بن محمّد بن أبي القاسم محمّد بن فرحون اليعمري المدني إقامة والأندلسي الجيّاني أصلا والمالكي مذهبا (ت 799هـ/1397م).

أمّا مؤلّف الذّيل فهو شيخ المالكيّة في عصره القاضي بدر الدّين محمّد بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يوسف بن عبد الرّحمان القرافي (939هـ/1533م-1008هـ/1600م) المصري أصلا وإقامة والقاهريّ دراسة ووفاة[8].

ولئن تخلّينا عن الذّيل الثاني للدّيباج وهو نيل الابتهاج للتنبكي[9] فلأنّ مؤلّفه من المغرب الإسلامي جنوب الصّحراء، ولأنّ غايتنا هو تحسّس موقف المشارقة من المغاربة في موضوع هامّ يتعلّق بتمسّك المغاربة بالمذهب المالكي باعتباره مذهبا رسميا وشعبيّا.

ويبدو المذهب المالكي من خلال هذين المصدرين[10] لا فقط موحّدا للمغرب العربي والأندلس وجنوب الصّحراء، وإنّما هو رابط كذلك هذه الرقعة الجغرافيّة الكبيرة بالمركزين الأساسيين للمذهب وهما الحجاز (المدينة) ومصر (القاهرة). وكان المغاربة بعد فتح المغرب الأدنى (إفريقيّة = تونس) والمغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (المغرب) والأندلس يشدّون الرّحال إليهما للأخذ عن مالك في المدينة ثمّ عن كبار تلامذته في مصر.

وقد مرّ المذهب المالكي بفترة ازدهار بالمغرب والأندلس إلى عهد المرابطين[11]، أعقبتها فترة عصيبة بعد سقوط دولة الملثمين وقيام الخلافة الموحّديّة[12] على يد المهدي بن تومرت. فقد استُهدف المذهب إلى حدّ أنّ المنصور[13] أمر الموحّدين بإحراق كتب المذهب المالكي في كافّة أنحاء البلاد مثل مدوّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد وكتاب التهذيب للبرادعي والواضحة لابن حبيب. وتحوّلت الدّراسات الإسلاميّة من علم الفروع إلى علم الأصول أي من علم يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها والحدود والقضايا وبعبارة أخرى من دراسة الجانب العملي والدّنيوي من الشريعة إلى علم يقوم على دراسة الشّريعة واشتقاقها من الكتاب والسّنّة ودراسة النّصوص الشّرعيّة والأدلّة العقليّة وتفصيل العقائد وأصول الفقه وباختصار مصادر الشريعة وكلّ ما يتعلّق بها[14].

ويبدو أنّ الأمر قد تغيّر كلّيا بعد سقوط الدّولة الموحّديّة فقد عادت وازدهرت الحركة الفكريّة والفقهيّة على المذهب المالكي في حواضر الدّول التي قامت على أنقاض دولة الموحّدين كفاس عاصمة بني مرين وتلمسان حاضرة بني عبد الواد وتونس عاصمة الحفصيّين وكذلك غرناطة حاضرة بني الأحمر. وهكذا بدا الشّرق يرنو إلى المغرب ليطّلع على هذه الحركة الفكريّة الجديدة بعد أن تمّ إحياء المذهب المالكي. ولم يكتف المشارقة بملاقاة بعض علماء المغرب عند أدائهم لفريضة الحجّ، وإنّما أصبح هناك ميل لمزيد معرفة أقطاب المذهب من خلال سيرة علماء المغرب والأندلس، فقاموا بالترجمة لهم في موسوعاتهم وكتب الطبقات لديهم. وقد مثّل علماء

تلمسان قسما هامّا ممّن وقع الاعتناء بهم والترجمة لهم في المصادر الشرقيّة. ولنا في "الدّيباج" وذيله "توشيح الدّيباج" خير مثال:

I- الدّيباج: عنوانه كاملا هو "الدّيباج المُذْهب (أو المُذَهَّب)[15] في أعيان علماء المَذهب. وهو في تراجم المالكية رتّبه ابن فرْحون على حروف المعجم بالنّسبة إلى الاسم الأوّل. واعترف بأنّ هذا الترتيب لا يخلو من شوائب[16]، واقتصر فيه على المشاهير ممّن لهم تآليف معروفة[17]، ولئن ذكر المؤلّف أنّ كتابه اشتمل على أزيد من 630 ترجمة[18] فإنّه يمكن بالاعتماد على طبعة 1996م ضبط عدد هذه التراجم بصفة دقيقة ففيها- حسب الفهرس- 632 ترجمة[19]. منها أربع لعلماء تلمسان نرتبهم ترتيبا أبجديا في الجدول التالي:

1- إبراهيم بن أبي بكر بن عبد اللّه الأنصاري الوقّشي أصلا المعروف بالتّلمساني أبو إسحاق[20]: فقيه وأديب وشاعر. تخصّص في الفرائض وله أرجوزة فيه تعرف بالتّلمسانيّة[21]، اهتمّ بها كثير من العلماء وشرحوها كأبي الحسن علي بن يحيى العصنوني المغيلي وأبو يوسف يعقوب بن عبد اللّه السيتاني (أو السّناتي) وعلي بن محمد القلصادي[22]، وله كذلك أرجوزة في السّير وأمداح النبيء. ولد سنة 609هـ/1212م، وتوفي 699هـ/1299م.

2-سعيد بن محمّد العقباني التّلمساني التّجيبي أبو عثمان[23]: فقيه قاض له شرح الجمل للخونجي في المنطق، توفي 811هـ/1408م.

3-عبد الرّحمان بن الإمام، أبو زيد[24]: شيخ المالكيّة في عصره ينتمي إلى عائلة مشهورة بتلمسان، له تصانيف عدّة في فنون مختلفة توفّي 743هـ/1342م.

4-محمد بن أحمد بن محمّد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي أبو عبد اللّه شمس الدّين[25] وهو المعروف بابن مرزوق الجدّ. أخذ عن ابني الإمام وقاضي الجماعة أبي عبد اللّه بن هديّة والخطيب أبي محمّد المجاسي، له شرح العمدة في الحديث وشرح الشفاء للقاضي عياض. ولد سنة 710هـ/1310م، وتوفّي بعد 780هـ/1378م بالقاهرة.

II- التوشيح وعنوانه كاملا: "توشيح الدّيباج وحلْية الابتهاج"[26]. ذكر القرافي أنّه أراد أن يكون التّوشيح فرعًا للدّيباج "بحيث يكون الفرع كالأصل يانعا وللمحاسن جامعا"[27]. وهو يشير بذلك إلى أنّه ذيْل للدّيباج، ورتّبه كما فَعل ابن فرحون على حروف المعجم[28]، واشترط مثله الاقتصار على التّرجمة للمشهورين ممّن وصلته مؤلّفاتهم. "وذَيّل كلّ حرف بتتميم قاصدا

الشمول والتعميم للتنبيه على من أغفله صاحب الأصل من أهل المائة الثامنة مضيفا إليه من سكت عنه من معاصريه من أهل المائة الثامنة... خاتما هذا الترصيف والبناء، بذكر من اشتهر بالكني"[29].

وتمتدّ تراجم التوشيح "من أواخر القرن الثّامن إلى أثناء هذا القرن العاشر"[30] وفيه 327 ترجمة منها 268 في الأصل و59 مضافة. منها ترجمة لعلماء تلمسان سواء أكانوا ممّن ترجم لهم المؤلّف أو ذكروا عرضا، نرتّبهم ترتيبا أبجديّا في الجدول التالي:

1-إبراهيم بن حكم السّكوني الكناني السّلوي الشهير بأبيه (ابن حكم)، أبو القاسم[31]: اعتبر من علماء تلمسان رغم أنّه وفد إليها وقتل بها سنة 737هـ/1337م.

2- إبراهيم بن عبد الرّحمان التّلمساني أبو الفضل الشهير بابن الإمام[32]، من بيت شهير. يذكره صاحب التوشيح باسم آخر محمّد بن يحيى. رحل إلى المشرق وحجّ[33] "تزاحم عليه النّاس بدمشق[34] حين علموا فضيلته وأحبّوه"[35]، وكانت شهرته بالتّدريس أكثر منها بالتّأليف. وكان يجمع بين الفنون العقليّة والنّقليّة. هذه الشّهرة بابن الإمام يشترك فيها مع علميين من أعلام تلمسان هما أبو زيد عبد الرّحمان ابن الإمام وأبو موسى عيسى ابن الإمام (والتوشيح عدد 145 ص 144).

3-أحمد بن البنّا أبو العبّاس من علماء تلمسان[36]، أخذ عنه المَقْرِي محمد بن محمّد بن أحمد المتوفّى 771هـ/1370م[37]، ذكره صاحب التوشيح في ترجمة المَقْرِي.

4-أحمد بن حاتم البسطي[38] أصيل بسطة بالأندلس، نزيل القاهرة من شيوخه في تلمسان: يحيى بن أحمد بن القاسم العقباني (أو ابن أبي القاسم العقباني)[39] ومحمد ابن الجلاّب[40]. وُلد البسطي 851هـ/1447م.

5-أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني[41]: قاضي الجماعة بتلمسان، ذكره حفيده محمّد بن أبي مرزوق في شرحه لبردة البوصيري توفّي سنة 768هـ/1316م.

6-أحمد بن علي البلوي أبو جعفر[42]: فقيه ناظم ناثر. توفّي في حدود 830هـ/1427م.

7-أحمد بن محمد بن زكري أبو العبّاس[43]: جمع بين الفقه والإفتاء والأدب. نقل عنه الونشريسي في المعيار المعرب[44] بعض المسائل.

8- أحمد بن محمد بن عبد الرّحمان المشهور بابن زاغو، أبو العبّاس. توفي 845/1441م[45].

9- أحمد بن محمد بن مرزوق[46]: هو والد محمّد بن مرزوق الحفيد: فقيه تلمساني، توفّي نحو 841هـ/1437م.

10- أحمد بن محمّد التدرومي التلمساني[47]: عالم بالمنطق. كان حيّا بعد 830هـ/1427م.

11- أحمد بن يحي بن عبد اللّه التلمساني الشريف قاضي الجماعة[48]، وجدّه هو شارح كتاب "الجمل" للخونجي في المنطق.

12-شرف الدّين التلمساني: ذكره صاحب التوشيح عرضا[49] عندما استظهر أبو زيد بن الإمام بنصّ له.

13-العباس (أبو) بن زاغو: الإمام الصّوفي أخذ عنه القلصادي بتلمسان[50].

14-عبد الرّحمان بن أبي موسى المشدّالي أبو زيد[51].

15-عبد الرّحمان بن محمّد بن عبد اللّه أبو زيد بن الإمام (ت 743هـ/1342م)[52].

خصّص صاحب التوشيح ترجمة واحدة له ولأخيه أبي موسى. وهذا الجمع نادرًا ما نجده في كتب التراجم. هذا وقد عُرف مع أخيه أبي موسى عيسى بن محمد بن عبد اللّه بعَلَمي تلمسان. درس مع أخيه أبي موسى وحجّا وكانت لهما شهرة بالمشرق. ناظرا تقي الدّين بن تيميّة شيخ الإسلام (ت 728هـ/1328م) وظهرَا عليه. وكان ذلك من أسباب محنته.

16-عبد اللّه بن محمد الشريف العالم أبي عبد اللّه التلمساني[53]، أبو محمّد من أكابر علماء تلمسان ومن أكابر البيوتات فيها (انظر فهرس التوشيح ص 295)، درس عليه ابن عاصم (ت 829هـ/1426م) صاحب الأراجيز في الأصول والفرائض والقراءات، توفّي أبو محمّد سنة 793هـ/1390م[54].

17-عبد اللّه بن محمد بن موسى بن معطى المعروف بالعبدوسي التلمساني، أبو محمّد (ت849هـ/1446م)[55]: الشيخ الفقيه الحافظ . من تلاميذه محمّد بن غازي. تولّى الفتيا والإمامة بجامع القرويين بفاس[56].

18-عبد اللّه المنجاصي (أو المخاصي)[57]: ذكره صاحب التوشيح عرضا ضمن شيوخ محمد بن محمّد المَقْري (ت 771هـ/1370م)[58].

19-عبد المهين الحضرمي أبو محمّد : ذُكر عرضا ضمن شيوخ المَقْري[59].

20- علي بن أحمد بن داود البلوي الأندلسي نزيل تلمسان : تميّز في الفقه والعربيّة. درّس ببلده وولي الإمامة بجامع غرناطة. واصل التدريس بتلمسان. كان حيّا سنة 866هـ/ 1462م[60].

21- علي بن محمّد بن محمّد بن علي القرشي القلصادي[61] هو من الوافدين على تلمسان ودرس على كبار علمائها كأبي الفضل قاسم العقباني والإمام ابن مرزوق الحفيد وأبي العبّاس بن زاغو. له شرحان للتلمسانية الأكبر والأصغر بعنوان "الغرّة التونسيّة في شرح الأرجوزة التلمسانيّة"[62].

22- عمران بن موسى بن يوسف المشدّالي[63]، أبو موسى : أصله من بجاية، انتقل إلى الجزائر ثمّ استقرّ بتلمسان . فدرس فيها الحديث والفقه والأصلين[64] والنحو والمنطق والجدل والفرائض. توفي عمران 745هـ/1344م[65].

23- عيسى بن محمّد بن عبد اللّه أبو موسى[66].

24- قاسم بن القاضي أبي عثمان العقباني أبو الفضل[67]: فقيه أصولي مفسّر، من شيوخ القلصادي، درس عليه التفسير والحديث والفقه والفرائض والهندسة والنحو والمعاني والبيان[68]، توفي قاسم في سنة 854هـ/1450م.

25-محمّد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد اللّه الآبلي العبدري التلمساني[69]. ليس هو صاحب الرّحلة المعروفة بالرّحلة المغربيّة، درس بتلمسان على أبي الحسن التّنيسي[70] وابني الإمام. رحل إلى المشرق ورجع إلى تلمسان، وهو أحد من درس عليهم ابن خلدون. توفّي 757هـ/1356م.

26-محمّد (الحفيد) بن أحمد (الأب) بن محمّد (الجدّ) بن أحمد بن محمّد بن محمّد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد اللّه (حفيد بن مرزوق)،

وقد يختصر بابن مرزوق الحفيد ولد سنة 766هـ/ 1364م. حجّ سنة 790هـ/1388م وسنة 819هـ/1417م. عالم تلمسان الموسوعيّ المعرفة. له عدّة تآليف من أشهرها شرحه للبردة وشرح الشقراطسية . توفي بتلمسان 842هـ/1439م[71].

27- محمّد بن محمّد بن أحمد بن مرزوق العجيسي: قدم مكّة وكان حيّا سنة 871هـ/1467م: درّس الفقه وأصوله والعربية والمنطق[72].

28-محمّد بن الجلاّب: ذُكر عرضا ضمن شيوخ ابن حاتم، وهو فقيه تلمساني توفّي 875هـ/1470م[73].

29- محمّد الزّبيدي ، أبو عبد اللّه ذُكر عرضا[74] ضمن شيوخ المَقري[75].

30- محمّد السّبطي (أو السّيطي) أبو عبد اللّه[76]: ذُكر عرضا ضمن شيوخ المَقْري[77].

31-محمّد بن شاطر أبو عبد اللّه :من شيوخ المَقْري. ذكره صاحب التوشيح عرضا[78].

32-محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني ثمّ التونسي، أبو عبد اللّه عرف بابن الرّصّاع.

له عدّة مؤلّفات: منها في شرح الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبيء (صلعم). واختصر شرح البخاري لابن حجر كما أفرد الشواهد القرآنيّة من مغني ابن هشام ورتّبها. توفي بالقيروان 894هـ/1488م[79].

33-محمّد بن عبد اللّه بن عبد الجليل أبو عبد اللّه: وصفه الونشريسي في المعيار المعرب بالفقيه الحافظ. توفّي 899هـ/1494م[80].

34- محمّد بن علي بن أبي شرف الحسني المعروف بالشريف التلمساني. أخذ عن ابن غازي (ت 919هـ/1513م) وعن أبي العبّاس الدّقوني (ت 921هـ/1515م). شرح الشفاء للقاضي عياض. توفّي 917هـ/1512م[81].

35-محمّد بن عمر بن الفتوح التلمساني أبو عبد اللّه[82]: ليس هو ابن فتوح الغرناطي[83]: عالم ورع خرج من تلمسان إلى فاس لأنّه اختلس النّظر إلى امرأة جميلة. أذاع في فاس مختصر خليل. توفّي 818هـ/1415م.

36- محمد بن محمّد بن أبي القاسم المشدّالي أبو الفضل المغربي[84] (821هـ/1417م- 865هـ/1461م). وهو من القادمين إلى تلمسان سنة 840هـ/1437م. اتّصل بابن مرزوق الحفيد وجادله، شرح الجمل للخونجي. وكان أبوه المعروف بابن أبي القاسم من الزّهاد[85].

37-محمّد بن محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرّحمان أبو عبد اللّه المعروف بالمقْري، أوّل من استقرّ من عائلة المَقْري بتلمسان هو جدّ جدّه "عبد الرّحمان". ولد محمّد بتلمسان ودرس على أغلب علمائها . توفي 771هـ/1370م[86].

38-محمّد بن يحيى التلمساني أبو الفضل الشهير بابن الإمام. ذكره صاحب التوشيح باسم آخر هو إبراهيم بن عبد الرّحمان[87]. من بيت شهير. وهذه الشهرة يشترك فيها مع علمين من أعلام تلمسان وهما عبد الرّحمان بن محمّد بن عبد اللّه أبو زيد بن الإمام، وعيسى بن محمّد بن عبد اللّه أبو موسى بن الإمام.

- يحي بن أحمد بن القاسم (أو ابن أبي القاسم) العقباني: قاضي الجماعة بتلمسان. ذُكر في الوشيح عرضا[88] ضمن شيوخ ابن حاتم[89]. توفي 880هـ/1475م.
- يحي بن محمّد التلمساني : فقيه لغوي، رحل إلى الشرق وحجّ . سمع من أبي عبد اللّه بن مرزوق، توفي سنة 809هـ/1407م[90].

وحسب هذين الجدولين ينتسب علماء تلمسان بالدّرجة الأولى إلى مدينتهم فيعرفون بالتلمساني أو ابن التلمساني[91] أو العبّادي[92]، وقد ينتسبون إلى بيوتات مشهورة كبيت ابن مرزوق[93] وابن الإمام[94] و المشدّالي[95] والشّريف والعقباني.

ومن حيث الإقامة والهجرة إليها أو منها : هناك علماء أصيلو تلمسان ولادة ونشأة وإقامة ووفاة، ومنهم من ولد فيها وتعلّم ، ثمّ انتقل إلى مكان آخر سواء في المغرب الأقصى، (فاس والرّباط) أو في المغرب الأدنى (تونس والقيروان)، أو في المشرق (القاهرة ودمشق، مكّة والمدينة)، ومنهم من دخلها ودرس فيها ثمّ قفل راجعا إلى مدينة أخرَى، ومنهم من اضطرّ إلى الهجرة إليها وخاصّة من العدوة الأندلسيّة بعد تكالب العدوّ على إمارة بني الأحمر.

ومن حيث الاختصاص كان علماء تلمسان يعرفون بالفقيه وبالفرضي[96] والمحدّث والمنطقي والأصولي والعددي[97]. ومن حيث الخطط تولّى بعضهم الإمامة أو الخطابة بالجوامع الكبرى كالمسجد الكبير ومسجد سيدي بلحسن (الآن متحف الفنون الإسلاميّة) ومسجد القصورة ومسجد أبي الحسن المريني على ضريح أبي مدين. ومنهم من تولّى القضاء[98] أو الافتاء[99] وقد يجمع بينهما، ومنهم من لبس الخرقة[100]. وكان أغلبهم من المدرّسين والعلماء المصنّفين: والقاسم المشترك بينهم جميعًا الورع والتقوى. ولم يكن بعضهم بمنأى عن السّياسة فاكتوى بنيرانها فاضطرّه إلى مغادرة تلمسان نهائيّا (كابن مرزوق الجدّ).

وكان نشاط هؤلاء العلماء في نطاق المذهب المالكي حسب المنهج التقليدي الذي استقرّ نهائيا بالمغرب العربي بجميع حواضره الكبرى. وهو منهج يقوم على التلقين تدريسا وعلى الاختصار تأليفا، قال ابن خلدون "إنّ اختصار الكتب في كلّ فنّ والتقيّد بالألفاظ على طريقة المتقدّمين[101] وغيره، من محدثات المتأخّرين، والعلم وراء ذلك كلّه"[102]. لهذا لم يكن في هذا النشاط العلمي تجديد ملفت للنّظر واقتصر علماء تلمسان على شرح بعض الأمّهات واختصارها أو

نظمها ليسهل فهمها وحفظها. وتركّز هذا النّشاط على القرآن وقراءاته وعلى الحديث وروايته والفقه وفروعه.

ولئن كان الاهتمام أساسا بالمنقول من العلوم[103] فإنّ النّشاط في المعقول منها لم ينقطع وإن قلّ كالمنطق والأصول وعلم الكلام[104]، بل إنّ بعض العلماء في تلمسان كان لهم اهتمام بالطبّ والهندسة والحساب والجبر، والهيئة والنّبات.

ولم يكن الأدب بمنأى عن شواغل علماء تلمسان، فقد كان للشعر وملحه[105] واللّغة وقضاياها[106] والبلاغة وأقسامها مكانٌ في مجالسهم ومناظراتهم. وأثناء دروسهم[107]. ولم يكن الحوار مقتصرًا على ما كان يدور داخل سورها وإنما تعدّاه إلى حوار غير مباشر بين علماء تلمسان وعلماء مدن أخرى بالعدوتين. وخير مثال على ذلك كتابا ابن مرزوق الجدّ: "اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة" وهو أجوبة على مسائل في الفقه والتّفسير وردت عليه من عالم قفصة أبي يحيى بن عقيبة، و"المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السرّاج" أجاب فيه قاضيَ الجماعة بغرناطة في مسائل نحويّة ومنطقيّة. وبصفة عامّة كانت تلمسان مقرّا للفتوى فكثيرا ما تُوجّه أسئلة في مختلف مجالات الحياة الدّينيّة والدّنيويّة إلى علمائها من العدوتين وكان لإجاباتهم صدى في كتب الفتاوى كالمعيار للونشريسي[108].

واشتهرت تلمسان ببعض الفروع الفقهيّة كالفرائض ولا أدلّ على ذلك من شهرة التلمسانيّة: وهي رجز في الفرائض نال شهرة كبيرة في كامل ربوع العدوتين وخاصّة العدوة الإفريقيّة، وقام كثير من علمائها بشرحها، وفي المكتبة الوطنيّة بتونس من نسخ الأرجوزة وخاصّة شرحها، ما يدلّ على قيمتها وعناية العلماء بها.

وزيادة على الدّروس التي يلقيها الشيوخ على من يجلس إليهم للأخذ عنهم ترك علماء تلمسان كثيرًا من المصنّفات. والقائمة قد تطول إذا أردنا أن نذكر أغلب هذه المؤلّفات، لذلك سنقتصر على ذكر عينة منها تعكس صورة واضحة عن اهتمامات علماء تلمسان تدوينا وتأليفا.

1-ففي التفسير هناك شرح الفاتحة لابن زاغو (ت 845هـ/1441م) وتفسير سورتي الأنعام والفتح للعقباني (التوشيح ص 170).

2- وفي الحديث لابن مرزوق الحفيد: المتجر الرّبيح والمسعى الرّجيح والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح، والرّوضة (رجز ب 1700 بيت في الحديث) لابن مرزوق الحفيد (التوشيح ص 171، 172)، وشرح العمدة في الحديث خمس مجلّدات لابن مرزوق الجدّ (الدّيباج ص 396).

3- وفي الفقه: إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب لابن مرزوق الحفيد (التوشيح عدد 170)، وشرح مختصر خليل لابن زاغو (التوشيح ص 62)، والمقنع الشافي: أرجوزة في الميقات[109] لابن مرزوق الحفيد (التوشيح عدد 170)، وشرح التلمسانيّة لابن زاغو في الفرائض (التوشيح ص 62).

4-في المنطق : شرح "الجمل للخونجي" للعقباني (الدّيباج ص 204).

5-وفي السّيرة : إظهار صدق المودّة في شرح البردة لابن مرزوق الحفيد، اختصره في الاستيعاب في البردة من المعاني والبيان والبديع والإعراب، وله : الآيات البيّنات في وجوه دلالة المعجزات (التوشيح ص 171-172). ولابن مرزوق الجدّ شرح الشفاء للقاضي عياض. (الدّيباج ط 1996 عدد 160)، وفي مدح الرّسول مولدية، وأمداح في الرّسول والصّحابة لابن مرزوق الحفيد (التوشيح : عدد 170).

6-وفي التصوّف : ذيل على الإحياء لابن زاغو (التوشيح ص 62)، واليقين في شرح حديث أولياء الله المتقين لابن مرزوق الحفيد: تكلّم فيه على رجال المقامات كالنّقباء والنّجباء والبدلاء (توشيح 172).

7- في النّحو: كإيضاح المسالك في شرح ألفيّة ابن مالك لابن مرزوق الحفيد (التوشيح ص 173).

8-في برنامج الشيوخ كبرنامج شيوخ ابن مرزوق الجدّ (الدّيباج ط 1996 عدد 160).

وهكذا تبدو مدينة تلمسان من خلال الدّيباج وتوشيحه مدينة مغناطيسية جذبت إليها علماء من كافة مدن المغرب والأندلس. ولكنها لم تكن منغلقة بل منفتّحة فقد يمّم كبار علمائها شطر وجوههم، كثيرا من مدن العدوتين ولم يكتف بعضهم بذلك بل قصد المشرق للحجّ وطلب العلم ونال بعضهم في تلك الرّبوع من الشّهرة ما جعل حلقات دروسهم تغصّ بطلاّب العلم في القاهرة ودمشق ومكّة والمدينة. ممّا دعا علماء المشرق إلى الاهتمام بهم والترجمة لهم في مصنفاتهم التي خصّصوها للمذهب المالكي باعتبارهم علماء بلغوا في تخصّصهم درجة التميّز فيه.

الملاحق: الملحق الأول: بنو مرزوق[110]

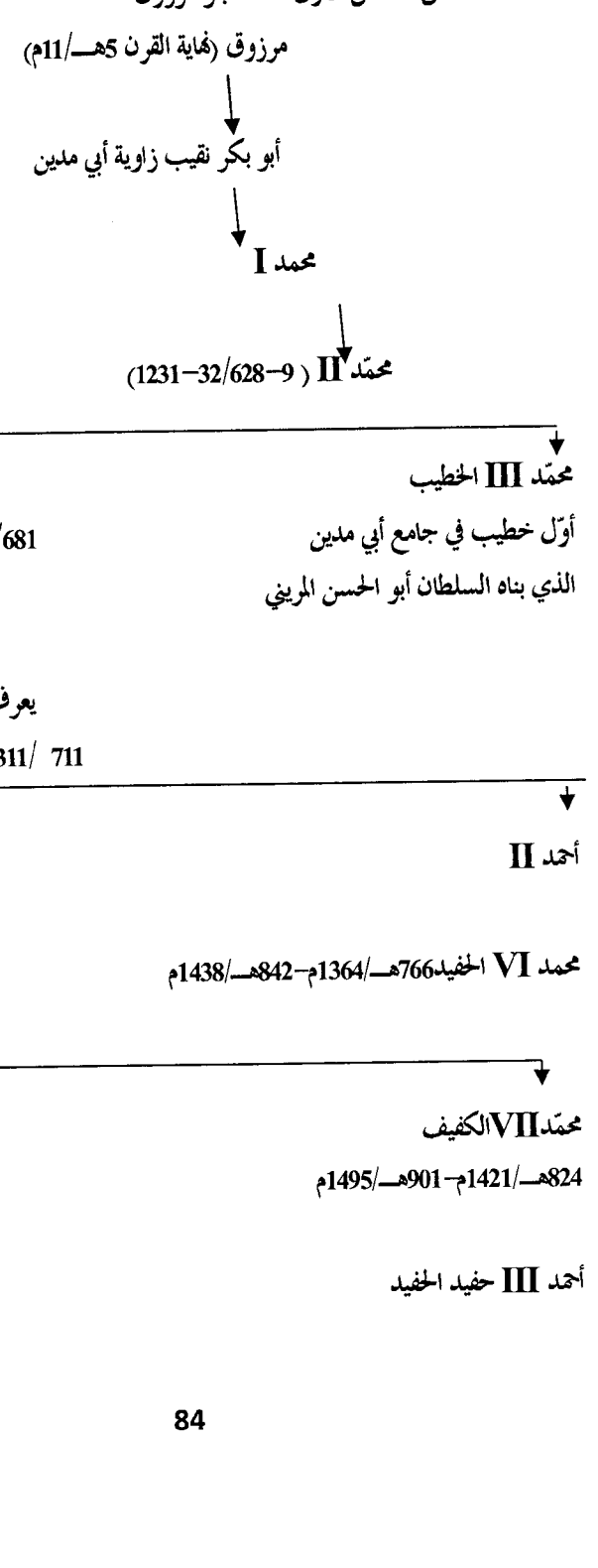

– مرزوق: هو أوّل من استقرّ بتلمسان من هذه العائلة في نهاية القرن 5هـ/11م أثناء الحكم المرابطي، وكان من رجال الدّين وملاّك الأرض، وأصله من جنوب إفريقيّة. نزحت عائلته إلى تلمسان عند الغزو الهلالي.

– أبوبكر: متطوّع متحمّس لخدمة ضريح الصّوفي الأندلسي أبو مَدْين في ضاحية تلمسان المعروفة بالعبّاد.

– محمّد الثاني: ولد في سنة 620هـ/1291م ومات 681هـ/1282م ودفن بجوار القصر القديم بتلمسان.

– أحمد الأوّل: ولد سنة 681هـ/1282م، ودرس بفاس. كان من الزّهاد. عاش محنة محاصرة أبي يعقوب المريني لتلمسان 685–706هـ/1286–1307م. رحل إلى المشرق وحجّ 717هـ/1317م، ثمّ استقرّ بمصر ومات بمكّة 741هـ/1340م.

– محمّد الثالث: أوّل خطيب في جامع بناه السّلطان أبو الحسن المريني فوق ضريح أبي مَدْين سنة 710هـ/1310م–732هـ/1331م. والخطيب الثاني في هذا الجامع هو محمّد الرّابع.

– محمّد الرّابع : هو شمس الدّين أبو عبد اللّه محمّد بن أحمد بن محمد بن محمّد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التِّلمْساني ويعرف بابن مرزوق الجدّ : محدّث وأديب وخطيب جامع أبي مَدْين (جامع العبّاد) ورجل سياسة. ولد بتلمسان سنة 1–710هـ/1–1310م، وتوفّي في 781هـ/1379م، وبه كانت شهرة عائلة المرازقة. كان معاصرا لابن الخطيب وابن خلدون.

سافر مع والده أحمد I وهو في سنّ الثانية أو السّابعة إلى المشرق. ودرس في مكّة والمدينة والقدس والإسكندرية والقاهرة. رجع إلى تلمسان وتولّى الكتابة الخاصّة لأبي الحسن المريني. ودخل في خضمّ الأحداث السّياسيّة بالمغرب فسجن ثلاث مرّات، قرّر على إثرها وهو في تونس سنة 773هـ/1372م العودة إلى المشرق، وبقي بمصر إلى وفاته بالقاهرة سنة 842هـ/1438م (EI2 ج III ص 899).

– محمّد السّادس: يعرف بالحفيد ولد سنة 766هـ/1361م، وتوفّي في 842هـ/1438م. وهو عالم المغرب في عصره بدون منازع وكما عرف بعلمه عرف بتقواه.

– محمّد السّابع ولد 824هـ/1412م، وتوفّي سنة 901هـ/1495م: يعرف بابن مرزوق الكفيف، محدّث وخطيب.

- أحمد الثالث بن محمّد السّابع توفّي بعد وفاة والده بقليل. وهو خطيب مشهور ويعرف بحفيد الحفيد.

-محمّد الثامن بن حفصة بنت محمّد السّادس الحفيد توفّي 918هـ/1512م.

الملحق الثاني:[111]: نجد في ترجمة ابن حكم صورة للحياة الأدبيّة والفكريّة بتلمسان في النّصف الأوّل من القرن 8هـ/14م. من ذلك أنّه لما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن علي بن فرحون نزيل طيبة (المدينة) سأل ابن حكم عن معنى البيتين (الوافر):

رَأَيْتُ قَمَرَ الزَّمَـانِ فَـأَذْكَـرَتْنِي لَيَالِيَ وَصْلَنَـا بالرَّقْمَتَيْـنِ

كلانا نَـاظِرٌ قَمرًا وَلَكِـنْ رَأَيْتُ بِعَيْنِهَـا وَرَأَتْ بِـعَيْنِي

ففكّر ثمّ قال : لعلّ هذا الرّجل كان ينظر إليها، وهي تنظر إلى قمر السّماء. فهي تنظر إلى القمر حقيقة، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنّها الحقيقة؛ فقد رأى بعينها لأنّها ناظرة الحقيقة، وأيضا ينظر إلى قمر السّماء مجازًا، وهو لافراط استحسانه لها يرى أنّ قمر السماء هو المجاز فقد رأت بعينه لأنّها ناظرة المجاز.

وسأل ابنُ فرحون ابنَ حكم هل نجد في التّنزيل ستّ فاءات مرتّبة ترتيبها في هذا البيت؟ (البسيط):

رأى فحَبَّ فَرامَ الوَصْلَ فامْتَنَعُوا فسام صَبْرًا فَأَعْيَى نَيْلَهُ فقضَى

قال نعم: ﴿فطَافَ عَلَيْهَا طائفٌ من ربّكَ وَهُمْ نَائمُون فأصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ، فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَن اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إنْ كُنتُم صَارِمِين، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافتُونَ أنْ لا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قادرين، فلمّا رأوْها قالُوا إنّا لَضَالُّونَ بَلْ نحن مَحْرومُون، قال أوْسَطُهُمْ: ألَمْ أَقُلْ لكم لوْلاَ تُسَبِّحُونَ، قَالُوا سُبحان ربّنا إنّا كُنّا ظالمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُون﴾ (القلم 68- من الآية 19-30).

قال: فهل عندك غيره؟ قال: نعم؛ "فقال لَهُم رَسُولُ اللَّه نَاقَةَ اللَّه وَسُقْياها فَكَذّبوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَم عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشّمس 91 من الآية 13-15)[112].

الهوامش:

1- بدليل وجود آثار رومانية قديمة تعرف بالبساتين (Pomaria) (EI2 ج X ص 534 كتب المثال محمّد اليعلاوي).

2- نفس المرجع السّابق.

3- وقيل : إنّ تِلْمسان بالبربريّة معناها مجمع العيون لأنّ تلمسان هي جمع لكلمة تِلْمس ومعناها عين.

4- البكري : المسالك والممالك ط. تونس 1992، ج 2/ ص 746.

5- أوّل أمراء بني عبد الواد ومؤسّس الدّولة هو أبو يحيى يغمراسن بن زيان حكم (633/1236 – 681/ 1283)، وآخرهم هو الحسن بن عبد اللّه 957/1550. (EI2 ج I / ص 96، كتب المقال ج. مارسي).

6- العبدري : الرّحلة المغربيّة، تحق الفاسي. ط الرّباط 1968 ص 13.

7- انظر ترجمته في (EI2 ج III/ ص 786 لـ ج.س. ب. هبكنز J.S.P Hopkins .

8- يجب التمييز بينه وبين محمّد بن أحمد بن عمر بن شرف القرافي (ت 867/1463).

9- أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التبكتي السّوداني (963/1556–1036/1627) التوشيح ترجمة عدد 180 ص 181. مؤرّخ، عالم بالحديث والفقه له زيادة عن "النّيل"، "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج (ط الرّباط 2000 في جزأين)، وتُبكتي أو تُمبكو مدينة صغيرة في جمهورية مالي. وكانت مركزا تجاريا وفكريا على نهر النّيجر هامّا، ينسب إليها مجموعة من العلماء (المجد، الأعلام ص 154).

10- ويمكن أن نضيف إليهما "نيل الابتهاج" و"كفاية المحتاج" للتبكتي.

11- الدّولة المرابطيّة (453/1061–542/1147).

12- الدّولة الموحّديّة (525/1130–668/1269).

13- المنصور الموحّدي (580/1184–596/1199).

14- مراد بوقصّي : العلاقات العلميّة بين المغاربة والأندلسيّين من القرن 9/3 إلى القرن 14/8 ص 73. (بحث دكتوراه مرقون بكلّية منّوبة).

15- من ذَهَبَ أو أذهب : مَوّهه بالذّهب فالشّيء ذَهِيب ومُذْهَب ومُذَهَّبٌ.

16- الدّيباج ص 93.

17- الديباج ص 93.

18- ن.م.

19- طبع هذا الكتاب عدّة طبعات : ط I بمصر 1329، وط II بيروت بتحقيق أبو النور، وط III بيروت 1996 بتحقيق مأمون ابن محي الدّين الجنّان. وهذه الطبعات في حاجة إلى مزيد من الدّقة المنهجيّة في تحقيق النّصوص ووضع الفهارس.

20- الدّيباج ط II ، 1996 عدد 160 ص 147، EI 2 ج X ص 535.

21- نرجح أنّ تسميتها متأتّية من تأليفه لها في تلمسان قبل أن يستقرّ في سبتة. توجد نسخة منها في دار الكتب الوطنيّة بتونس عدد 21709.

22- أمّا الشروح فلها نسخ عديدة بدار الكتب الوطنيّة بتونس : 01038–21089–00585–02569/ الخ...

23- الدّيباج ط II عدد 249 ص 204.

24- الدّيباج ط II عدد 362 ص 250.

25- الدّيباج ط II عدد 535 ص 396. (انظر ص 17 من هذا البحث).

26- حققه الدّكتور أحمد الشّتيوي. وطبعه دار الغرب الإسلامي بيروت 1983، 322 ص.

27- التوشيح ص 35.

28- ن.م ص 36.

29- ن.م ص 36.

30- ن.م ص 36.

31- التوشيح عدد 62 ص 77.

32- التوشيح عدد 247 ص 4-233.

33- سنة 1407/810.

34- سافر إلى الشام من القاهرة سنة 1409/812.

35- التوشيح ص 51.

36- ذكر عرضا في التوشيح ص 247.

37- التوشيح عدد 271 ص 246.

38- التوشيح عدد 12 ، ص 51.

39- قاضي الجماعة بتلمسان (ت 1475/880) ، التوشيح ص 51 ت 5.

40- فقيه تلمساني ت 875/ 1470، (التوشيح ص 51 ت6).

41- التوشيح : ع 47 ص 69.

42- التوشيح : ع 19 ص 54.

43- التوشيح : ع 28 ص 61.

44- التوشيح : ص 61 ت 8.

45- التوشيح : ع 33 ص 62.

46- التوشيح : ع 22 ص 56 ت 6..

47- التوشيح : ع 11 ص 51.

48- التوشيح : ذكره عرضا ص 216.

49- التوشيح : ص 147.

50- التوشيح : ص 132.

51- التوشيح : ص 147.

52- التوشيح : عدد 145/ ص 5- 144.

53- التوشيح : ص 126.

54- التوشيح : ص 126، ت 6.

55- التوشيح : عدد 97 ص 114.

56- التوشيح : ص 114.

57- التوشيح : ص 247.

58- التوشيح : عدد 271 ص 246.

59- التوشيح : ص 247.

60- التوشيح : عدد 126ص 130.

61- التوشيح : عدد 124 ص 132.

62- مخطوط دار الكتب الوطنية عدد 1613.

63- نسبة إلى قيلة من زواوة.

64- الأصلان هما أصول الفقه وهي القواعد التي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام الشرعيّة، وأصول الشّريعة أي القرآن والسنّة والاجماع والقياس. (معجم لغة الفقهاء لقلعجي ط II 2006 ص 52).

65- التوشيح عدد 159 ص 160.

66- انظر ترجمة أخيه عبد الرّحمان بن محمد بن عبد الله أبي زيد بن الإمام ص8 من هذا البحث .

67- ذكر عرضا في التوشيح ص 132 ت6.

68- التوشيح ص 134.

69- التوشيح عدد 265 ص 243.

70- وقيل التنسي (التوشيح ص 244 ت2).

71- التوشيح : عدد 170 ص 171.

72- التوشيح : عدد 238 ص 229.

73- التوشيح : ص 51 ت 6.

74- التوشيح : ص 247.

75- التوشيح : عدد 271/ ص246.

76- التوشيح : ص 247.

77- التوشيح : عدد 171 /ص 246.

78- التوشيح : ص 247.

79- التوشيح : عدد 219 ص 216.

80- التوشيح : عدد 322 ص 270.

81- التوشيح : عدد 214 ص 215.

82- التوشيح : عدد 213 ص 214.

83- التوشيح : عدد 8 ص 49.

84- التوشيح : 221 ص 219.

85- التوشيح عدد 172 ص 171.

86- التوشيح : عدد 271 ص 246.

87- التوشيح : عدد 243 ص 4-233.

88- التوشيح : ص 51.

89- التوشيح : عدد 12 ص 51.

90- التوشيح : عدد 284 ص 259.

91- انظر معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر لعادل نويهض. ط. بيروت 1983 : نجد فيه 73 ترجمة عُرفوا بالتلمساني (صص 63-83).

92- نسبة إلى "العبّاد" مقرّ ضريح أبي مدين (انظر التوشيح ص 160، 174، 219).

93- انظر ملحق هذا البحث ص17 (الملحق I) .

94- انظر فهرس التوشيح ص 289.

95- انظر فهرس التوشيح ص 301.

96- نسبة إلى علم الفرائض.

97- نسبة إلى علم العدد أي الحساب.

98- القضاء في المغرب والأندلس على ثلاثة أنواع : قاضي الجماعة (قاضي القضاة بالمشرق)، وقاضي الأنكحة، وقاضي المحلّة (الجيش).

99- كثيرا ما يورد الونشريسي في المعيار فتاوى لعلماء تلمسان كمحمد بن يحيى بن علي التلمساني الشّهير بابن النجّار (معجم أعلام الجزائر ص 82)، ومحمّد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (ت 1466/871).

100- نظرا إلى كثرة العلماء المعروفين بالتصوّف في تلمسان وضع محمد بن محمّد بن أحمد أبو عبد اللّه الشّريف المليتي أصلا المديوني التلمساني منشأ ووفاة (ت بعد 1605/1014) كتابا سمّاه "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" فيه 185 ترجمة كلّهم من مدينة تلمسان (الأعلام 61/7).

101- العضد: هو عضد الدّين الإيجي من إيج بفارس عالم بالأصول وبالعربيّة ت 1355/756 (الأعلام 3/ 295).

102- التوشيح : ص 118.

103- التوشيح : ص 234.

104- التوشيح : ص 130.

105- التوشيح : ص 77-78.

106- التوشيح : ص 78، 79، 132، 134، 161، 248.

107- وبطيعة الحال كان هناك مع كلّ ذلك حوار في المسائل الفقهيّة، انظر التوشيح ص 145، 149، 150، 160.

108- هناك عديد الفتاوى في مسائل الحبس والوصيّة والتحل (انظر المعيار للونشريسي الجزء السّابع. ط. بيروت 1981.

109- الميقات جمع مواقيت : المكان الذي لا يجوز لحاج أو معتمر أن يتجاوزه إلاّ بإحرام (قلعة جي : معجم لغة الفهاء ط 2006 ص 440).

110- EI ج III / ص 890. كتب المقال محمد الحاج صادق.

111- التوشيح : ص 77 -79 وص 132، 134، 161، 248.

112- نلاحظ في هذه الآيات أنّ الفاء، تكرّرت خمس مرّات فقط، وتكرّرت الواو مرّتين.

المصادر والمراجع مرتّبة ترتيبا أبجديّا:

- بُوقَصّي مراد: العلاقات العلميّة بين المغاربة والأندلسيّين من القرن 9/3 إلى القرن 14/8 (بحث دكتوراه مرقون بكليّة الآداب بجّوبة تحت إشراف الأستاذ فرحات الدّريسي.

- التنبكتي أحمد بابا: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج، تحقيق محمّد مطيع- ط. الرّباط 2000 في جزأين.

-التنبكتي أحمد بابا : نيل الابتهاج . ط. دار السّعادة مصر 1911.

-داود صلاح : تراجم في التعريف بمن عاش بإفريقيّة أو حلّ بها من العلماء من خلال الدّيباج لابن فرحون وهامشه نيل الابتهاج للتنبكتي من سنة 745/128 إلى 1535/972 : بحث في نطاق شهادة الكفاءة تحت إشراف الدّكتور محمّد سويسي، مرقون في مكتبة كلّية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس رقمه T 1773 .

-فرحون (ابن) : اختصار الدّيباج (مخطوط) بدار الكتب الوطنيّة رقم 04293 .

-فرحون (ابن) : الدّيباج : تحقيق مأمون بن محي الدّين الجنان . ط III بيروت 1996.

-القرافي : توشيح الدّيباج، تحق الدّكتور أحمد الشتيوي. ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، 322 ص.

- مريم (ابن) : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لأبي عبد اللّه محمّد بن محمّد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني ت بعد 1605/1014- تحقيق محمّد بن أبي شنب- ط. الجزائر 1908.

- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. ط. بيروت 1983.